

بسم الله الرحمن الرحيم

التضاييف المنهجي في النقد العربي

Maysoon.1973m@gmail.com

د. ميسون مرازيق / أستاذ مساعد / جامعة طيبة - السعودية.

الملخص:

يقصد هذا البحث التعرف إلى مصطلح التضاييف المنهجي، عبر علاقة النقد العربي بالنقد الغربي، محاولاً أن يكشف عن التفاعل والتداخل بين الحضارات، بحيث لا يمكن فهم فكر ثقافة الأمم إلا في إطار التأثير والتأثر. كما يبين استضافة النقد العربي للمناهج النقدية الغربية بما يتناسب و ذوق الناقد العربي للمنهج ، الذي تأثر به عن طريق التلمذة ، أو عن طريق الترجمة.

وتعرض البحث للحديث عن آراء النقاد بالتضاييف المنهجي ، مؤكداً على عدم التقليل من جهود الغير وتحجيمها من خلال التشبث بالتراث، فالمناهج النقدية الحديثة المستضافة : كالبنوية والأسلوبية... وإن كان لها بذور في التراث إلا أنها مصاغة بقوالب جديدة .

وفي النهاية يؤكد البحث على الأخذ من الآخر واستضافة ما عنده ، بحيث نكون قادرين على ايجاد نظرية عربية نقدية معاصره .

الكلمات المفتاحية : التضاييف ، المنهجي ، النقد

Methodical Reciprocity in Arabic Criticism

Dr. Maysoon Marazeq/ Asst. Prof./ Tayba University– Saudi Arabia

Abstract

This research is intended to identify the term methodical reciprocity through the relationship between Western and Arabic criticism. It attempts to reveal the interaction and overlap between civilizations, so that no one can understand the thought of a nation's culture except within the framework of influencing and being influenced. It also shows the acceptability of Western critical approaches in conformity with the taste of the Arab critic of the method, who was influenced by study or through translation.

The research also talked about the views of critics regarding methodical reciprocity, stressing on not underestimating the efforts of others through clinging to heritage, for adopted modern critical methods such as structuralism and stylistics, and though had roots in heritage but are added in new moulds.

Finally, the research stresses taking from the other so that we would be able to find a contemporary Arab critical theory.

التضائيف المنهجية في النقد العربي:

في البدء لابد من التعرف على مصطلح التضائيف الذي أودعه الله سبحانه وتعالى في جبهة الإنسان، الذي يتفاعل مع غيره دون تجاهل لذاته المدركة ، فالتضائيف يعتمد على العلاقة بين المتضائيفين حيث إن " تصور كل واحد من الأمرين موقوفاً على تصور الآخر"⁽¹⁾. وعند وصفه بالمنهجية تتجلى العلاقة الجمالية، فالمنهج في المعنى اللغوي يشير إلى طريق يبيّن الخطة والهدف قصد الوصول إلى نتائج ملموسة. وبصيغة أخرى يشير مصطلح التضائيف المنهجية إلى التفاعل والتداخل بين النقد العربي والمناهج النقدية الغربية التي استضافها في مجال الأدب ؛ لقراءة العمل الفني قصد معرفة بنيته الجمالية والدلالية والشكلية، فالنقد يهدف إلى: " تحليل النص ، كشف حقل الدلالات فيه ، إظهار قوانينه الداخلية ، إنارة هيكل البنية ، والوصول إلى ما تحمله البنية من مضمون ورؤية العلاقة بين هذا المضمون و خارج النص "⁽²⁾ من هنا يصبح المنهج وسيلة لتنظيم هذه الغاية التي يسعى إليها النقد.

ولتأكيد أهمية المصطلح الذي نوهنا إليه لابد من معرفة العلاقة التفاعلية بين النقد العربي و المناهج النقدية الغربية. فقد ظهر النقد العربي في بدايته معتمداً على الذوق الانطباعي ، فكان يلجأ الناقد للحكم على شاعرية الشاعر إلى بيت أو بيتين أو مقطوعة صغيرة من الشعر ، وهذا يمثل النابغة الذبياني الذي كان تضرب له قبة حمراء من آدم بسوق عكاظ فتأتبه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها ، ومثال ذلك ما "أنشد الأعشى وحسان بن ثابت الأنصاري:

وَلَدْنَا بَنِي الْعَقَاءِ وابْنِي مُحَرِّقٍ فَأَكْرِمْنَا خَالاً وَاكْرِمْنَا ابْنَنَا
لَنَا الْجَفْنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأُسَيَّافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةِ دَمًا
فقال له (النابغة): أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك و أسيافك، و فخرت بمن ولدت، و لم تفخر بمن ولدك"⁽³⁾.

(1) انظر ، فيشر أرنست : ضرورة الفن، ترجمة : أسعد حليم، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، 1971م، ص 9.

(2) بمى العيد ، حكمت صباغ الخطيب : في معرفة النص ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1983م، ص 125-126.

(3) أبو عبيد الله محمد بن موسى المرزباني : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق على محمد البجاوي ، دار الفكر العربي،

القاهرة، . دت ، ص 77.

هذا نقد ذوقي انطباعي "يقدم معنى الكرم و لا يرضى إلا بالمثل الأعلى و تقدس ما اعتاد عليه القوم من الفخر بالآباء قبل الفخر بالأبناء و أن الانحراف عن هذه المثل لا يمكن أن يرضى عنه الذوق العربي، ومن ثم يؤثر تأثيراً سلبياً عند الحكم"⁽¹⁾.

ولعل النقد بقي على هذه الشاكلة حتى ظهر مجموعة من النقاد درسوا الأدب رغبة في إثبات إعجاز القرآن الكريم ، أمثال أبو بكر الباقلائي في كتابه " إعجاز القرآن" و عبد القاهر الجرجاني في كتابه " دلائل الإعجاز" و " أسرار البلاغة " . ودراسة الأمدي في كتابه " الموازنة بين الطائيين: البحري وأبو تمام " . وقد ركزوا على قضايا نقدية خاصة باللفظ والمعنى والسرققات الشعرية ، وبناء القصيدة العربية التي ظهرت عند ابن طباطبا ، والتخييل الشعري والمحاكاة كما ظهرت عند القرطاجني .

وفي بداية القرن العشرين بدأت التلمذة لطلاب العرب على أيدي الفكر الغربي ، وبذلك تم التلاقح الثقافي بتأثيره على نقاد الوطن العربي ، فحاولوا استضافة ما يناسب ذوقهم من المناهج النقدية وتطبيقها على الأدب العربي ، فنجد جورج زيدان وطه حسين وشوقي ضيف وأحمد أمين ، ومحمد مندور يرحبون بالمنهج التاريخي . وهذا الإعجاب جعل الناقد محمد مندور يرى أن المنهج التاريخي أدق المناهج وأن بفضلها جددت الانسانية معرفتها بالتراث الروحي، يقول " منذ عودتي من أوروبا أخذت أفكر في الطريقة التي نستطيع بها أن ندخل الأدب العربي المعاصر في تيار الآداب العالمية ، وذلك من حيث موضوعاته ووسائله ومناهج دراسته على السواء . ولقد كنت أؤمن بأن المنهج الفرنسي في معالجة الأدب هو أدق المناهج ، وأساس ذلك المنهج هو ما يسمونه (بتفسير النصوص) فالتعليم في فرنسا يقوم في جميع درجاته على قراءة النصوص المختارة من كبار الكتاب وتفسيرها والتعليق عليها ... هذا المنهج التطبيقي هو الذي استقر عليه رأيي وإن كنت قد نظرت إلى ظروفنا الخاصة وحاجتنا إلى التوجيهات العامة"⁽²⁾. ولم يكتب بهذا المنهج بل استضاف أيضاً المنهج الفني ، الذي تمثل في كتابه (الأدب وفنونه) .

(1) نجوى محمود حسين صابر، . النقد الأدبي حتى نهاية القرن الثالث الهجري. دار المعارف الجامعية، 2002م. ص30

(2) محمد مندور: النقد النهجي عند العرب ، دار نضضة مصر ، ص5

ونجد أيضاً شوقي ضيف يطبق هذا المنهج على الشعر والنثر ، إذ قسم الأدب إلى فنون تمثل هذا في كتابيه (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) و (الفن ومذاهبه في النثر العربي) ، وكذلك عز الدين اسماعيل في كتابه (فنون الأدب) ، وعبد المنعم تليمة في (مقدمة في نظرية الأدب) . ولم ينسوا المنهج الاجتماعي الذي يرى الأدب مرآة تعكس المجتمع بكل مظاهره من الاستضافة ، فقد رحب به طه حسين في مؤلفه " ذكرى أبي العلاء " .

واستمر الترحيب بالمنهج رغم سقوطها في موطنها ، فنجد المنهج النفسي . الذي يربط الأدب بذات المبدع والشعورية واللاشعورية . عند طه حسين في كتابه (مع المتنبي) ، وفي دراسة العقاد ومحمد النويهي لشخصية أبي نواس ، ونجد المنهج الاسطوري أيضاً الذي اختص بدراسة الاساطير في النص الأدبي عند مصطفى ناصف في كتابه " قراءة ثانية لشعرنا القديم" . وأحمد كمال زكي في " التفسير الأسطوري للشعر القديم " ، وابراهيم عبد الرحمن " التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي" .

ولكرمهم العربي الأصيل تم استضافة المناهج النقدية الحديثة التي تهتم بالنص وتحلله دون التعرض للعلاقة بين النص ومبدعه والظروف المحيطة ، (الاسلوبية ، والبنوية ، والتفكيكية ، والسيمائية ، والتداولية) وبذلك تحول النقد العربي بفضل هذه الاستضافة من إصدار الأحكام الذوقية إلى القراءة النقدية . وهذا طبيعي في الحضارة الانسانية القائمة على التضاييف " فكل عناصرها الطبيعية والاجتماعية والسياسية متشابكة لا يستقل أحدهما بالحياة منفرداً⁽¹⁾ .

آراء النقاد في التضاييف المنهجي :

اختلف النقاد في طريقة الترحيب بهذا الضيف ، فمنهم من رأى الضرر في استضافته ، فاعتبر " إن المقاييس الغربية حتى إن فهمت أحسن فهم وأصححه . لن ينتج تطبيقها على الأدب العربي خيراً ، ذلك لأن هذه المقاييس قد استخلصت من دراسة أدب تختلف طبيعته عن طبيعة الأدب العربي اختلافاً عظيماً"⁽²⁾ . وهذه الحججة غير منطقية ، لأن المنهج هو عبارة عن أدوات ومنهجية معينة يطبقها الناقد ، ولكن الأساس هو الأثر الذي يتركه النص .

(1) أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط1 ، 1999م ، ص105 .

(2) انظر ، أحمد حسين جمعة : المسبار في النقد الأدبي (دراسة في نقد النقد للأدب القديم والناقص) ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،

ونجد بعضهم يرى أن هذا الضيف وان كان مبني على فكرة الحداثة والتقدمية . " يخفي حقيقته التي هي التبعية ، وتحقير الذات " (1) . وهذا شيء مخالف لطبيعة الإنسان القائمة على التأثير والتأثر والتضاييف ، فالإنسان دائماً في طبيعته يضيف إلى شخصيته الأشياء التي يقتنع بها ، فلماذا لا نصف الغرب إذن بالتبعية وتحقير الذات عندما استضافوا كثير من المعارف العربية الإسلامية إلى ثقافتهم ، وهذا بشهادة نقادهم يقول (سيديو): "إن نتاج أفكار العرب الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد أنهم أساتذة أوروبا في جميع الأشياء" (2) . ولم يكتفوا بذلك بل جعلوه قد ألحق الضرر بالنص الأدبي من " من جزاء المغالاة في إخضاعه لمناهج العلوم الإنسانية وذلك حين قيدت النظرة إليه بحدود المناهج التي يفسر بها " (3) . فنجدهم يذكرون العقاد والنويهي وغيرهما بأنهما " حوّلوا دراسة الادب إلى دراسة للغدد والجينات وتركوا الادب نفسه على الهامش " (4) ، وان هذا المنهج ينظر إلى المبدع نظرة دونية ، لأنهم يصفون أي اديب أو فنان بأنه مريض نفسياً وإلاً لما اصبح أديباً او فناناً ويدعمون آراءهم بان " هذا المنهج سلب أهم حق للأعمال الادبية والفنية وهو الحق الجمالي والاجتماعي حين حصر اهتمامه في دراسة شخصيات الفنانين على حساب الاثر الفني , فكانت المعالجة في النهاية معالجة كليليكية أو عيادية لأن الاساس الذي انطلق منه اساس طبي " (5) .

ورحب بعضهم بالمنهج الفني أو الجمالي ، ورأى به الضيف الخفيف؛ لأنه يواجه العمل الأدبي بالقواعد الفنية " ويعتمد أولاً على التأثير الذاتي للنقاد ولكنه يعتمد ثانية على عناصر موضوعية وعلى اصول فنية لها

(1) محمود الربيعي : في النقد الأدبي وما إليه : دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة . مصر ، ط1 ، 2001م ، ص 261 .

(2) أحمد محمد الحوي : تيارات ثقافية بين العرب والفرس ، ط3 ، دار نخبة مصر ، القاهرة ، 1978م ، ص 257 .

(3) محمود الربيعي في النقد الأدبي وما إليه ، ص 260 .

(4) ابراهيم محمود خليل : النقد الادبي الحديث من الحكاكة الى التفكيك ، دار المسيرة للنشر والتوزيع - عمان ، 2003م ، ص 58 .

(5) زين الدين المختاري : المدخل الى نظرية النقد النفسي ، سيكولوجية الصورة الشعرية في نقد العقاد نموذجاً ، اتحاد الكتاب العرب ،

دمشق ، 1998م ، ص 16 .

حظ من الاستقرار فهو منهج ذاتي موضوعي وهو اقرب المناهج إلى طبيعة الادب وطبيعة الفنون على وجه العموم" (1).

وهنا لا أحالفهم الرأي بأهمية هذا المنهج ، ولكنه كسائر المناهج الأخرى التي أضافت قيمة جمالية للأدب ، وكشفت كثير من الحقائق النفسية والجمالية للمبدع والنص .

أما المنهج البنيوي رغم تلهف النقاد على التنظير له وتطبيقه في كثير من مؤلفاتهم ، إلا أننا نجد من يحاول التقليل من شأنه بقوله " ليس هو التحليل القادر على ربط الادب بالقارئ وإنما هو أقرب الى تحليل المختبرات الرياضية التي يعينها النص بحد ذاته كجسم لغوي صوتي او دلالي ... النقد هنا هو نص معملي وليس خطاباً . هذا الاتجاه في الغرب هو حصيلة دراسات مستمرة منذ عشرات السنين في مجالات اللغة واللسان والاصوات والانثروبولوجيا البنيوية . وقد تفرعت عنها علوم اخرى كعلم الدلالات وعلم الاجتماع الادبي " (2) . وناقده آخر يقول : " عيب على البنيوية أنها تهدف إلى خلع الأعمال الأدبية عن جذورها وقتلها " (3) . ويرى آخر أن محللين البنيوية من النقاد يسخرون من القارئ العربي ويتهمونهم بالسذاجة ، بالرغم من نقلهم مناهج شاخحت في الغرب ، يقول " سعت المدارس النقدية الحديثة التي نقلت الينا على انها طفلة غريبة بعد ان هرمت وشاخحت في الغرب ، الى اقناعنا بان دراسة النص بنيوياً هي الوسيلة الأحداث ، بمعنى انها الوسيلة الافضل والاشمل لدراسته . واذا سألناهم : الافضل لماذا ؟ سكتوا . فإذا قلنا :أهي الافضل لفهم النص ؟ صاحوا مستنكرين :لا... ليس الفهم او الافهام غايتنا ، واذا قلنا لهم :وكيف يكون الجزئي هو الاشمل ؟ تمادوا وسخروا من سذاجتنا ، ونصدق اتهامهم لنا بالسذاجة ، فنحن فعلاً لا نفهمهم جيداً وكثيراً ما نعزي عدم فهمنا لهم الى نقص فينا لا فيهم ونعكف على دراستهم جيداً ، نقرأ صابرين اهم ما يصدرونه من دراسات ، ونجد ان مدرستهم صارت مدارس وان بنيتهم صارت بنى ، وصارت بنيويتهم بنيويات كثيرة" (4) . وهذا الرأي غير دقيق لأن الناقد العربي يهيمه دراسة الأثر

(1) سيد قطب :النقد الادبي، اصوله ومناهجه، دار الشروق ، بيروت ، ط5 ، 1983م ، ص 129 .

(2) غالي شكري ، برج بابل ، النقد والحداثة الشريفة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط2 ، 1994م ، ص 101 .

(3) صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، 1997م ، ط1 ص 95 .

(4) انظر ، نقد المناهج النقدية الحديثة ، www.fqh.uokufa.edu.iq/staff/abdlkareema.aasi/6/1.doc

الأدبي ، بغض النظر عن وقت شيوع المنهج في بلاده ، كما أنه يقدم قراءة إبداعية للنص لكي يوضح خصوصيته ويكشف أسرار جماليته ، ويفتح أبوابه على اتساعها لكي يدخل منها المتلقون القراء إلى رحابة العمل الأدبي ، بحيث يكون من حق كل متلق أن يعيد هو نفسه إنتاج النص المقروء مزوداً بما اكتسبه من خبرة الناقد ، بهذا تتعدد قراءات النص ويولد من جديد مع كل قراءة جديدة.

ومع ذلك نجد من يرحب باستضافة هذا المنهج ويعلن حماسه لها : "كانت البنيوية مبعوث العناية اللغوية الذي حمل بشارة العهد الآتي إلى العلوم الإنسانية ومنها النقد الأدبي، دلاً إياها على طريق الهداية المنهجية والجنة الموعودة للدراسات العلمية التي تؤسس النقد الأدبي بوصفه علماً من العلوم الإنسانية المنضبطة. وسواء تحدّثنا عن البنيوية بوصفها حركة اجتماعية سياسية أو بوصفها نشاطاً أيديولوجياً، فإنّها تظلّ مشروعاً منهجياً بالدرجة الأولى، من حيث هي دعوة إلى تطبيق النموذج المنهجي الذي انبنى عليه علم اللغة عند سوسير" (1).

ويجد بعضهم أنّها حررت الإنسان من عبودية الفلسفات العقلية ، بقوله " لكن اهم مميز يمكن لنا اليوم ان نستنبطه من خصوصيات البنيوية على صعيد القراءة النظرية هو الموقع الجديد الذي احتله الانسان ضمنها ، فالفلسفات المألوفة كانت دائماً حسب تقديرنا تنطلق من شيء ما هو خارج الانسان لتنتهي الى شيء ما يتجاوز حدود الانسان بعد ان تكون قد غاصت في عالم الوجود عبر الكائن البشري ، فالإنسان من حيث هو بذاته قد كان دوماً واسطة العقد في القلق الفلسفي ولكنه لم يكن في حد نفسه علة وجوده ولا غاية مطافه" (2)، ورغم إعجاب هذا الناقد بالبنيوية ، إلا إننا نجد بعض زعماء الحركة البنيوية تحولوا الى تفكيكيين ، وبقي بعض منهم يأخذ من المذهبين . وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على أن النقد ليس تابعا لمنهج معين أو مدرسة أو نظرية ... النقد هو إبداع ، فبينما المبدع ينتج النص الأدبي من عالمه المتخيّل أو الواقعي ، فإن الناقد يعيد اكتشاف الأثر الجمالي برؤاه الذي لا بد أن يعتمد على ثقافة وخبرة دقيقة باتجاهات النقد المعاصر . ولا يجوز أن تستند إلى منهج جاهز يطبقه الناقد على النص الأدبي ؛ لإعلاء النظرية . فالقراءة النقدية الواعية تتفاعل مع النص بهدف ارهاق السمع إلى نبضها الخفي ، وجمالياتها التي تنزف عطراً من روحه الراقية ، وليس الأدوات

(1) عصفور، جابر: نظريات معاصرة، دمشق، بيروت، 1998، ص 207.

(2) عبد السلام المسدي: قضية البنيوية، دراسة ونماذج، دار أمية، تونس 1991م، ص 28،

المنهجية المقررة قبل الولوج إلى عالم النص ، لنتمكن حينها من الحديث عن إبداع نقدي عربي بدل الحديث عن استضافة مناهج نقدية .

أما التفكيكية فيقول ليتش في كتابه (النقد التفكيكي) : " إن التفكيكية باعتبارها صيغة لنظرية النص تخرب كل شيء في التقليد تقريباً وتشكك في الافكار الموروثة عن العلامة واللغة والنص والسياق والمؤلف والقارئ ودور التاريخ وعملية التفسير وأشكال الكتابة النقدية "⁽¹⁾. لذلك نجد بعض النقاد قد وصفوا هذا الضيف الذي تم استضافته في النقد العربي بأنه نقل إليهم الفوضى . ومع ذلك نجد النقاد العرب قد استضافوا الفكر الغربي ، وتبنوا مشاريعهم النقدية ، وهذا ليس عيباً ، لأن التضاييف هو قانون الحياة ، فما يراه الإنسان جميلاً يستضيفه إلى فكره ، ولكن أكرر يجب ألا نخضع النص الأدبي إلى قوانين منهجية مقررة سلفاً . كاستخدام المعادلات الرياضية والجداول والإحصاءات في قراءة النص الأدبي . وإنما السعي لاستحداث نظرية نقدية عربية تتوافق مع النص برؤية معاصرة ، لكي يستضيفها الآخر كما استضفنا مناهجه . مما يجعلنا نبهر بالعقل العربي والمجازاته الذين حاولوا بعض النقاد العرب من الاساءة اليه بقولهم : " وإنّ المرء ليزهو بأدميته حين يُلقى بنفسه في غمار الآداب الغريبة، وتجيش أعماق ضميره بتدافع تياراتها وتعارض مهاجتها ومتجهاتها وتجاوب أصداؤها وأصواتها: أبوابٌ للكتابة منوّعة، ومهايع متّسعة، وفنون مبتدعة، ونحلّ ومذاهب، ومدارس ومشارب. والحياة بين هذه الأفكار المشرقة معروضة للنظر في كلّ شيء من شياتها، محسوسة في كلّ خطرة من خطراتها، متكزرة متضاعفة، شاكة موقنة، جادة ساخرة، ناقمة راضية" ⁽²⁾.

(1) عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1998م ، ص 291

(2) عباس محمود العقاد ، و إبراهيم عبد القادر المازني : الديوان، دار الشعب، القاهرة، ط4، ص121.

أجذور للتضاييف المنهجية في التراث العربي ؟

تعد المناهج المستضافة أدوات لتحليل النص الأدبي نستعين بها ، وليس غاية في حد ذاتها ؛ لذلك يجب الحذر من فرض المنهج على النص الأدبي . لأن المنهج بطريقة لاشعورية يؤثر على الناقد وفكره . وخصوصاً بعض النقاد الذين ركزوا جهودهم على مهمة التأصيل من التراث لأي جهد غربي يتصل بالنقد الأدبي ، فنجدهم يؤكدون على أن الأسلوبية هي نفسها البلاغة ولكنها مصوغة بلغة جديدة ، فيعدون " عبد القاهر الجرجاني في عداد البلاغيين السابقين إلى التنقيب عن الفعاليات الإبلاغية التواصلية حيث عوّل بكل وضوح على استثمار قوى التلقي في إثراء المادة اللغوية الإبلاغية ، وخاطب المتلقي في مواضع عديدة من كتاب دلائل الإعجاز سامعا وناظرا ومتصفاً وقارناً ... وكذلك يتسق تفكير عبد القاهر الأسلوبي مع سعي التنظير في هذا الحقل مثلما هم مجمعون عليه من حيث اشتراط إدراك العلاقات الترابطية بين الكلم " (1) وأكدوا أيضاً أن عبد القاهر الجرجاني سبق إلى كشف البنيوية وهو يتحدث عن النظم، فمنهم من يذكر أن " مذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا لأيامنا هذه، هو مذهب العالم السويسري فرديناند دي سوسير. " (2) ، ورى بعضهم أن آراء الجرجاني تتطابق " في وجوه النظم والأسلوب ، وعلاقة ذلك باللغة والنحو والبلاغة ، مع آراء البنيويين ، المعاصرين والأسلوبيين المحددين في النقد الأدبي والبلاغي ، ولو لم يكن لعبد القاهر من مآثرة غير اهتدائه لمرتكزات نظرية الأسلوب الأساسية . قبل تسعة قرون . لكفاه ذلك فخراً ، فكيف إذا أدركنا أنه وضع علم البيان والنظم " (3) . ويؤكد بعضهم أن التساؤلات التي أثارها الجرجاني حول الاستعارة تحتفظ بالكثير من المعاصرة ، وأن الذي تصوّروه " تحت تأثير النقد الاجتماعي والنفسي والتاريخي والانطباعي — من إمكان تجاوز البلاغة القديمة باعتبارها قواعد جامدة. وإذا كانت هذه البلاغة قد فقدت الكثير من المواقع في المؤسسات التعليمية، فإن ثورة علوم اللغة وما أعقب ذلك قد نبّه الأذهان إلى أنّ البلاغة لن تموت، وخاصة إذا كانت بحجم بلاغة الجرجاني. إنّ العودة إلى الجرجاني هي عودة إلى نصّ لم يفقد جدّته، نصّ يثير

(1) الدلالات الأسلوبية البنيوية بين عبد القاهر الجرجاني وميكائيل ريفاتر،

<http://www.nizwa.com/%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%84%D8%A7%>

(2) محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب، ص 333-334.

(3) خليل إبراهيم : الأسلوبية ونظرية النص ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 1، 1997، ص 49.

من التساؤلات أكثر مما يقدّم من أجوبة قاطعة، نصّ يفتح باب الاجتهاد ويتركه كذلك " (1) ولذلك وصل منهم إلى التركيز على " أنّ العقل العربيّ قد عكف منذ القرن الثالث الهجريّ وحتى نهاية القرن الخامس على تطوير نظريّة لغويّة لا تختلف في مكوناتها كثيراً عن مفردات علم اللغويات الحديث الذي أسّس له فرديناند دي سوسير في بداية القرن العشرين "2.

أما السيميائية فذكروا أنّ الجاحظ قد أشار إليها من خلال حديثه عن العلامة ، وعمل بعضهم مقارنة بين الجاحظ وفرديناد دي سوسير ، يقول "يعتبر الجاحظ العالم نظاماً من الإشارات، ويعتبر سوسير بعض مظاهر الحياة الإنسانية الشبيهة باللّغة ذات نظام إشاري. يعتقد الجاحظ أنّ اللّفظ والخطّ والعقد والإشارة والنّصبة لدى الإنسان وسائل بيانية مختلفة المظهر، متشابهة الأصل والجوهر وهذا بالضبط مفهوم سوسير للسيميولوجيا" (3).

ولم ينسوا التداولية فهي نظرية المقام في البلاغة العربية ، فذكرها أحدهم بقوله : " أنّ البلاغة العربية قد أعيد لها الاعتبار في الدراسات المعاصرة فيما يعرف بالتداولية " (4). ويصل بعضهم إلى ان : " البلاغة والتداولية البرجماتية تتفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة للممارسة الفعل على المتلقي ، على أساس أنّ النص اللغوي في جملته إنّما هو نص في موقف " (5) . ولعل الذي دفعهم إلى ذلك ما تمتاز به البلاغة من قوة التأثير في إيصال المعنى للمخاطب . ونجدهم يقولون أيضاً : " إنّنا مهما حاولنا أن نخرج بمعلوماتٍ وافرة من علم تحليل الخطاب المعاصر، فلن يكون هذا المطلوب يسيراً إلّا إذا عُذنا إلى البلاغة العربيّة " (6).

(1) الولي محمد : الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي، المركز الثقافي العربي ، بيروت، 1990، ص 66

(2) عبد العزيز حمودة : المرايا المقعرة ، نحو نظرية نقدية عربية ، عالم المعرفة ، الكويت ، 2001م، ص 234.

(3) إدريس بللمليح: الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة ، المغرب ، 1984م، ص 48.

(4) محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، 1999م ، المغرب ، 214.

(5) صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، المجلس الثقافي للفنون والآداب ، الكويت ، 1992م ، ص 89.

(6) حامد أبو حامد، "الخطاب والقارئ"، نظريات التلقي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة ، مؤسسة اليمامة ، الرياض، 1997م ،

وذكروا أن الجرجاني قد أشار إلى النحو التوليدي والتحويلي في حديثه عن معاني النحو ذلك شأن النظرية التوليدية التحويلية "فنجده قد سبق تشومسكي إلى تحديد الفروق الدقيقة بين العميق وغير العميق من عناصر الجمل، حين فَرَّق بين النَّظم والترتيب والبناء والتعليق، فجعل النظم للمعاني في النفس، وهو تماماً البنية العميقة عند تشومسكي، أما البناء فهو البنية السطحية الحاصلة بعد التركيب بواسطة الكلمات كما أنَّ التعليق هو الجانب الدلالي من هذه الكلمات التي في السياق"⁽¹⁾.

وهذا يجعلني أتوقف عند الملاحظ الآتية:

أولاً: حتى لو ألمح التراث النقدي العربي لبعض النظريات والمناهج النقدية الغربية الحديثة ، لماذا ننتظر الغرب ليكشفها، لماذا لا نكشفها؟ ونحن أولى بذلك ، فنحن ابناء اللغة العربية .

ثانياً: التضاييف هو سنة الله في خلقه، فالإنسان يكتسب المعرفة والفكر عن طريق التفاعل و التأثر و التأثير ، وفي هذا نجد اشادة نقاد الغرب المعاصرين المنصفين: " بالجهود اللغوية العربية القديمة وإسهامها في مجالات عدة، ومنها: الدراسات الصوتية والدراسات المعجمية، حتى إن بعض الغربيين المنصفين قد ألفوا كتباً تتحدث عن جهود القدامى العرب"⁽²⁾.

ثالثاً: ألا يعد الانشغال بالبحث عن المنجزات اللسانية والنقدية الغربية في التراث، تقليلاً لجهود الآخر ، وتسويغاً لفشلنا من إيجاد نظرية نقدية عربية يستضيفها الآخر .

(1) تمام حسان، تعليم النحو بين النظرية والتطبيق، ص114 مجلة المناهل، المغرب، 1967 .

http://www.ummtto.dz/IMG/pdf/_-8.pdf

(2) انظر: برجستراشر، التطور النحوي للغة العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، القاهرة، 1982م.

الخاتمة :

استضاف النقاد العرب المناهج النقدية الغربية ، من خلال التضايف الذي أودعه الله سبحانه وتعالى في طبيعة الإنسان المتميز الذي يؤثر ويتأثر بما يحيط به وخصوصاً الفكر البشري ، وهذا لا يقلل من شأن الناقد ، لأن التضايف من حيث الجوهر ، مبني على الاستفادة من أي منجز حضاري وفكري يساهم في رقي البشرية ورفي الذوق والفكر .

كما نجد بعض النقاد يحاولون جاهدين أن يستأصلوا في التراث للتضايف المنهجي ، ولكن الأفضل البحث عن نظرية نقدية عربية ، يحاول الآخر استضافتها من خلال التضايف .

وينبه التضايف المنهجي النقاد العرب عن عدم التقليل من جهود الآخر ، في البحث والتأصيل النقدي ، لأنه يعتبر اجحافاً في حقهم ، ويحثهم على اكتشاف المناهج من لحاظ فهمهم للغة السلف وقربهم منها .

المصادر والمراجع :

- * ابراهيم محمود خليل : النقد الادبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان ، 2003م.
- * أحمد حسين جمعة : المسبار في النقد الأدبي (دراسة في نقد النقد للأدب القديم والتناص) ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2003 م .
- * أحمد محمد الحوفي : تيارات ثقافية بين العرب والفرس، ط3، دار نفضة مصر، القاهرة ، 1978م.
- * إدريس بلميلح: الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة ، المغرب ، 1984م.
- * الولي محمد : الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي، المركز الثقافي العربي ، بيروت، 1990م.
- * برجستراشر، التطور النحوي للغة العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، القاهرة، 1982م.
- * تمام حسان، تعليم النحو بين النظرية والتطبيق، ص114 مجلة المناهل، المغرب، 1967 .
http://www.ummtto.dz/IMG/pdf/_-8.pdf
- * حامد أبو حامد، "الخطاب والقارئ"، نظريات التلقي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة ، مؤسسة اليمامة ، الرياض، 1997م.
- * خليل ابراهيم : الاسلوبية ونظرية النص ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1، 1997م.
- * زين الدين المختاري : المدخل الى نظرية النقد النفسي ، سيكولوجية الصورة الشعرية في نقد العقاد نموذجاً ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1998م.
- * سيد قطب :النقد الادبي، اصوله ومناهجه، دار الشروق ، بيروت ، ط5 ، 1983م.
- * صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ،دار الآفاق العربية ، القاهرة، 1997م ، ط1.
-: بلاغة الخطاب وعلم النص ، المجلس الثقافي للفنون والآداب ، الكويت ، 1992م
- * عباس محمود العقاد ،و إبراهيم عبد القادر المازني :الديوان، دار الشعب، القاهرة، ط4.

- * عبد السلام المسدي: قضية البنيوية، دراسة ونماذج ، دار أمية ، تونس 1991م.
- * عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1998م .
- : المرايا المقعرة ، نحو نظرية نقدية عربية ، عالم المعرفة ، الكويت ، 2001م.
- * أبو عبيد الله محمد بن موسى المرزباني : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق على محمد البجاوي ، دار الفكر العربي، القاهرة، . دت .
- * عصفور، جابر :نظريات معاصرة، دمشق ، بيروت ، 1998.
- * غالي شكري ، برج بابل ، النقد والحداثة الشريفة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط2 ، 1994م.
- * فيشر أرنست : ضرورة الفن، ترجمة : أسعد حلیم، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، 1971م.
- * محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، 1999م
- * محمد مندور :النقد النهجي عند العرب ، دار نفضة مصر.
- * محمود الربيعي : في النقد الأدبي وما إليه : دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة . مصر ، ط1، 2001م
- * نجوى محمود حسين صابر،. النقد الأدبي حتى نهاية القرن الثالث الهجري. دار المعارف الجامعية، 2002م.
- * يمني العيد ، حكمت صباح الخطيب : في معرفة النص ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1983 م .